هدايات القرآن في الصحة النفسية المصاحبة لجائحة كورونا المستجد (COVID-19) دراسة فقهية

د. علي ذريان العنزي (*)

تاريخ الاستلام: أبريل ٢٠٢٠م
تاريخ الإجازة: مايو ٢٠٢٠م

ملخص البحث

يهتم البحث بإبراز دور القرآن الفاعل والمؤثر في نشر الصحة النفسية ومعالجة الأعراض النفسية السلبية التي صاحبت أزمة الوباء العالمية التي يتعرض لها العالم اليوم بسبب (جائحة فيروس كورونا المستجد (COVID – 19) وهي لا تقل خطورة عن الأعراض الجسدية، ويأتي البحث ليؤكد هيمنة القرآن وحضوره بهداياته البليغة في جميع مناحي الحياة، وهو سلسلة من أبحاث كتبتها إبّان الأزمة في معالجة القرآن لأهم المظاهر المصاحبة لهذه الأزمة، كهداياته في أحكام النوازل الشرعية المصاحبة للأزمة العالمية، وهداياته في تقويم الأخلاق الإنسانية أثناء الأزمة العالمية.

وتناول هذا البحث: هدايات القرآن في بث روح السكينة والطمأنينة بالاعتصام بذكر الله وقراءة كلام الله، وهدايات القرآن في النهي عن الحزن والضيق واليأس وغيرها من المشاعر السلبية ومواقد الأمراض النفسية، وهدايات القرآن في غرس التفاؤل والاستبشار ونبذ التشاؤم وفقدان الأمل، ومن نتائج البحث أن الأزمات الإنسانية يصاحبها بعض الأعراض النفسية السلبية كالخوف والقلق والحزن والهم والشك والاكتئاب والتشاؤم واليأس، والقرآن الكريم يزخر بالمعالجات النفسية لهذه الأعراض ببث روح السكينة والطمأنينة، والنهي عن الحزن والضيق واليأس، ويغرس التفاؤل والاستبشار، وينبذ التشاؤم وفقدان الأمل، وكلٌّ ذلك في آيات جليلة مركزة في بلاغها ورسالتها، وثرية بالصور البلاغية البيانية المؤكدة للمضمون، والمؤثرة في نفس المتلقي.

الكلمات الدالة: القرآن، هدايات، الصحة النفسية، الوباء.

(*) د.علي ذريان العنزي: يعمل أستاذا مشاركا في قسم التفسير والحديث بكلية الشريعة، جامعة الكويت منذ عام ٢٠٠٩م. يحمل شهادة الدكتوراه في القرآن الكريم وعلومه من جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، عام ٢٠٠٩م، والماجستير (الأولى) في الفقه وأصوله من جامعة الكويت، عام ٢٠٠٣م، والماجستير (الثانية) في القرآن الكريم وعلومه من جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، عام ٢٠٠٦م، والليسانس في الفقه وأصوله من جامعة الكويت عام ٢٠٠٠م. وهو عضو باحث ومحكم في عدد من المراكز العلمية والبحثية والمسابقات الدولية في العالم، له (٤) كتب مطبوعة في القراءات والفقه والتفسير وعلوم القرآن، وله (١٨) بحثا منشورا في مجلات علمية عالمية محكَّمة. الاهتمامات البحثية: القراءات والتفسير وعلوم القرآن، العلوم اللغوية والبلاغية في القرآن الكريم.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حمدا يبلغ بالحمد منتهاه، والصلاة والسلام الدائمان المتلازمان على رسول الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والنسمة المجتباة، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم أن نلقاه، وبعد:

فلقد أصيب العالم – كلُّ العالم – بمصاب جلل وجائحة اجتاحت الجميع، وقلبت الموازين الدولية، وهزت عروش المؤسسات الاقتصادية، وأرهقت المنظومات الصحية، وحصدت الأرواح البشرية، إنه الوباء العالمي المعاصر (فيروس كورونا الجديد) الذي يرمز له بـ (COVID – 19) وهو اختصار ل (CoronaVirus Disease) أي مرض فيروس كورونا، والعدد (١٩) نسبة لعام ٢٠١٩م الذي ظهر المرض في نهايته، إن توضيح الواضحات يُعَدُّ في الأصل من الحشو والزيادات، فمن فضول القول في هذه الساعة التعريف بالوباء العالمي (فيروس كورونا) لعلم الجميع به خصوصا المشتغلين بالعلوم والمعارف، والمتابعين للأخبار اليومية، ولكن ربما سيصل هذا البحث إلى الجيل اللاحق الذي تغيب عنه هذه الواضحات، ويصبح معه المرض من ذاكرة التاريخ – وهذا ما نرجوه وندعو الله به – فلهم أقول: إن وباء فيروس كورونا هو وباء عالمي مطبق، سببه فيروس ينتمي لفصيلة الفيروسات التاجية، وهو شديد الانتشار وسريع التنقل والعدوى، حيث ينتقل بمجرد اللمس لأسطح مسها المصابون في فترات ليست بالبعيدة زمنيا (قد تستمر فترة مكوث الفيروس على الأسطح لساعات طويلة) أو مقاربة المصاب والاحتكاك به، ومما يزيد الخطورة هو عدم شعور المصاب بحمله له، فلا يعبأ الناس بنقله ونشره؛ لعدم علمهم بحملهم له، وهذا الذي أرهق الأطباء وجيوش المؤسسات الصحية عبر العالم، وقد فتك المرض في غضون أشهر يسيرة بالآلاف، وأمرض مئات الآلاف، وأقعد مئات الملايين في محاجرهم المنزلية، وسط توقعات طبية بأن يصاب ثلثا سكان الأرض به إن استمر انتشاره دون اتخاذ التدابير الوقائية الجادة والناجعة، وقد أغلق هذا الوباءُ العامُّ الطامُّ الدولَ، وأعاد تشكيل الحياة اليومية للناس، وأفرغ الطرقات والأماكن العامة، وحشر الناس في بيوتهم، وضحاياه في ازدياد ساعة بعد ساعة، وقد بلغ عدد المصابين به حتى كتابة هذه الكلمة ما يقارب الـ (مليونين ونصف المليون) حالة إصابة بالفيروس، ومنها يقارب الـ (مئتي ألف) حالة وفاة، وأصاب الناس الهلع والخوف والقلق،

وبرزت جملة من السلوكيات الطارئة، واتخذت الدول الإسلامية جملة من التدابير الوقائية على المستوى الديني للحد من الإصابة بالفيروس لم تشهد لها مثيلا في القرون الأخيرة، تمثلت في تعطيل الجمع والجماعات في المساجد والمصليات، وإغلاق الحرمين الشريفين أمام المعتمرين والمصلين، واشتغلت القطاعات المجتمعية في مكافحة هذا المرض وأعراضه وآثاره على الصعيد الصحي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والنفسي والأمني، وكذلك على الصعيد الديني والشرعي والدعوي، وفي وسط هذا الركام والزحام من المقاومة والمكابدة للفيروس كان القرآن الكريم حاضرا وفاعلا ومؤثرا في الساحة العلمية والدعوية والتوعوية والتوجيهية، كيف لا وهو صِمامُ أمان البشرية، وحبلُ الله المتين، وذكرُه الحكيم، وصراطه المستقيم، وحكمته البالغة وحجته الدامغة ونعمته السابغة، من تمسك به نجى، ومن استرشد بهداه اهتدى، وحضور القرآن مهيمن ومؤثر ومؤكد للحقيقة الربانية والمعجزة الإلهية بصلاحية القرآن لكل زمان ومكان، وشموله للعلاج الناجع والبرهان الساطع الفاقع لكل نائبة وحادثة تمر بها البشرية ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩)، وهو المؤثِّر والمثبِّت والباعث على السكينة حين تطيش الأفئدة، والفائض بالطمأنينة حين تزيغ القلوب، والمعين على الثبات حين تزيغ الأهواء، وأردت بهذا البحث تسليط الضوء على مكانة القرآن العظيمة ودوره الشامخ في هذه الأزمة العالمية والجائحة البشرية، ومصاحبته لجميع مظاهرها العلمية المعرفية والأمنية والنفسية والاجتماعية والشرعية الفقهية والأخلاقية السلوكية، وأنه المستقى والمنهل في الإفتاء والتوجيه والإرشاد والتقويم والتحفيز والتذكير في جميع المظاهر المصاحبة لهذه الأزمة العالمية؛ ولتحقيق هدف الموضوع الكبير قسَّمته إلى ثلاثة أبحاث تناولت فيها ثلاثة مظاهر مهمة لهدايات القرآن الكريم في أزمة الوباء العالمية تتمثل في: هدايات القرآن الكريم في الصحة النفسية المصاحبة لأزمة الوباء العالمية، وهدايات القرآن الكريم في أحكام النوازل الشرعية المصاحبة لأزمة الوباء العالمية، وهدايات القرآن الكريم في تقويم الأخلاق الإنسانية أثناء أزمة الوباء العالمية، ولما كان الموضوع كبيرا، لا تفيه ولا تكفيه هذه الورقات، خصصت هذا البحث بالمظهر الأول من مظاهر هذه الأزمة وهي الصحة النفسية، فكان هذا البحث: (هدايات القرآن الكريم في الصحة النفسية المصاحبة لجائحة كورونا المستجد (COVID-19)) .

وأسأل الله العلي القدير العليم الرحيم الحليم الكريم أن يدفع البلاء، ويرفع الوباء، عن

الإنسانية جمعاء، وأن يرينا كرمه وحلمه ورحمته، كما أرانا قوته وعظمته وقدرته، وأعوذ بالله من زلات اللسان، وهفوات الجَنان، ونزغات الشيطان، وما توكلي واعتمادي إلا عليه سبحانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهذا أوان الشروع في المقصود.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١ – إثبات هيمنة القرآن وحضوره بهداياته البليغة في جميع مناحي الحياة وترسيخ شمولية الآية الكريمة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل:٨٩).

٢ – التأكيد على أهمية الرجوع إلى كتاب الله تعالى في الشدائد والأزمات، للاستهداء بهداياته السديدة الرشيدة، والاسترشاد بتوجيهاته الحكيمة العظيمة.

٣ – مواكبة الحدث المهم والخطب الجلل المتمثل في وقوع البشرية جمعاء في هذا الوباء والجائحة العالمية، والرغبة بالإسهام الإيجابي في التوعية والإرشاد والتوجيه من الناحية الشرعية بالنهل من معين القرآن الكريم.

٤ – تنوع مظاهر الأزمة العالمية في الجوانب الصحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأمنية، والحاجة إلى الإرشاد الشرعي القرآني في أهم مظاهر الأزمة.

٥ – معالجة الأعراض النفسية المصاحبة لهذه الأزمة، وهي لا تقل خطورة عن الأعراض الجسدية، والقرآن الكريم خير مُعين، وأوفر مَعين للحلول الناجعة، والأدوية النافعة؛ لتحقيق الاستقرار النفسي، وسلامة الصحة النفسية.

٦ – المشاركة الفاعلة والإيجابية في إثراء وإنجاح العدد الخاص لمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت عن أزمة الجائحة العالمية (فيروس كورونا المستجد COVID – 19) ، وتحقيق أهدافه الخاصة في نشر الوعي الفردي والجماعي بالأحكام والتوجيهات الشرعية المتعلقة بهذه الجائحة العالمية، وقى الله المسلمين والإنسانية جمعاء شر الوباء والبلاء وكل داء.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسات سابقة في هذا الموضوع – في حدود اطلاعي – خاصة أن الأزمة العالمية بسبب هذه الجائحة حديثة الوقوع، وما زلنا في خضمها، والأبحاث فيها – إن وجدت – فهي غالبا ما تتناول أحكام النوازل الشرعية من الناحية الفقهية والأصولية.

حدود البحث:

يركز البحث على معالجة القرآن للأزمة في مجال الصحة النفسية باستقراء وتحليل أبرز الآيات المفيدة في معالجة الجوانب النفسية المصاحبة للجائحة العالمية، دون التعرض للمظاهر الأخرى التي عالجها القرآن وهي كثيرة.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي (غير التام) بذكر أبرز الآيات محل النظر والتحليل، والمنهج التحليلي بالوقوف على هدايات كلِّ آية وربطها بالواقع، والصور البلاغية المؤكِّدة لمضمونها والمؤثرة في نفس المتلقي.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدمة تتضمن: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وحدود البحث، ومنهجه، وخطته المتمثلة في ثلاثة مباحث هي:

١ – هدايات القرآن في بث روح السكينة والطمأنينة بالاعتصام بذكر الله، وقراءة كلام الله.

٢ – هدايات القرآن في النهي عن الحزن والضيق واليأس.

٣ – هدايات القرآن في غرس التفاؤل والاستبشار، ونبذ التشاؤم وفقدان الأمل.

ثم الخاتمة التي تضمنت: النتائج والتوصيات وقائمة بالمصادر.

تمهيد:

بجانب تفاقم الحالات المرضية الجسدية جراء أزمة الوباء العالمي المعاصر (فيروس كورونا المستجد) صاحبت هذه الأزمة جملة من الأعراض النفسية السلبية، التي تزيد من تعقيد الأزمة، وتصعب المهمة أمام مواجهتها، وأبرزها:

١ – الخوف والهلع من المرض عينه، والخوف من التأزم المالي، بسبب تعطل العمل والبيع والشراء، والخوف من الجوع ونقص الغذاء، والخوف من تعثر الرعاية الصحية ونقص الدواء، والخوف من الاقتراب للناس ومخالطتهم، والخوف من المصير المجهول.

٢ – القلق والاضطراب من العزلة بسبب الحجر المنزلي وحظر التجول، وغياب أفق الحل والعلاج للوباء.

٣ – الحزن والغم من فقد الأقارب بالموت، أو إصابتهم بالوباء، أو قلة التواصل معهم.

٤ – الشك وسوء الظن، وضيق الصدر، وغياب الأمل، بسبب تراكم الأخبار السلبية، وتسارع وتيرة انتشار المرض، وزيادة إجراءات الاحتراز والوقاية.

٥ – التشاؤم، وفقدان الأمل، واليأس والقنوط، والاستسلام للأخبار السلبية.

وبإزاء هذه الاضطرابات والأعراض النفسية يجد المؤمن ضالته للوقاية أو العلاج منها في كتاب الله تعالى، ففيه الأمان لمن أحاط به الخوف والهلع، وفيه السكينة والطمأنينة لمن أثقله القلق والاضطراب وضيق الصدر، وفيه السعادة والفرح والسرور وانشراح الصدر لمن ألمّ به الحزن والغم والهم، وفيه برد اليقين وحرارة الإيمان لمن ساوره الشك وسوء الظن وضيق الصدر، وفيه التفاؤل والاستبشار لمن غلب عليه التشاؤم وغياب الأمل، ويمكن تلمُّس هذه الهدايات النفسية في القرآن الكريم من خلال العرض الآتي:

المبحث الأول

هدايات القرآن في بث روح السكينة والطمأنينة بالاعتصام بذكر الله وقراءة كلام الله ففيه شفاء الصدور وجلاء الهموم وذهاب الغموم

١ – قال الله جلَّ مجدُه وتعالى في علاه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨).

إن وهج السكينة والطمأنينة الذي تنشره هذه الآية الحكيمة كفيل للقارئ المتدبر المتفكر بإطفاء بواعث القلق والاضطراب، وإضفاء الراحة النفسية والاستقرار والرضا الداخلي؛ لأن المؤمن يعلم أن الله مالك كل شيء، وخالق كل شيء، ومدبر كل شيء، والقاهر فوق كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وحين يذكر مولاه المتصف بذلك كله حري بهذا الذكر وهيبتِه أن يفعل فعلَه في نفس المؤمن الضعيف بين يدي مولاه القوي، والمفتقر إلى مولاه الغني، قال مقاتل: («بذكر الله» بالقرآن، والسكون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك) [(١)]، وذكر الله في الآية هو القرآن – على الراجح – فهو أعظم الذكر؛ لأن الله سمى القرآن ذكرا في كثير من الآيات منها قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(١) معالم التنزيل للبغوي٣/ ١٥، روح المعاني للألوسي٧/ ١٤٢، التحرير والتنوير لابن عاشور١٣/ ١٣٧.

(الحجر:٩)، وقوله:﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ (الأنبياء:٥٠)، ويلحق بالقرآن الكريم كلُّ أنواع الذكر الحكيم، كالاستغفار والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والابتهال والتذلل والانكسار والثناء على رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

ومن الملامح البلاغية البديعة الجميلة في هذه الآية العظيمة الجليلة:

١ – أسلوب التكرار في الألفاظ المحورية الأربعة المقصودة في علاج القلق: الله والذكر والقلب والاطمئنان، فكل لفظ منها تكرر مرتين، والبلاغيون يقولون: إن الأمر إذا تكرر فقد تقرر! وخلاصة الوصفة النفسية فيها أن (ذكر الله) سبيل (اطمئنان القلوب).

٢ – أسلوب الافتنان في تكرار الخبر، فكان الخبر الأول ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ هو عين الخبر الثاني ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ مع حصول القلب في تركيب جملته، للافتنان الجمالي من ناحية، وللتأكيد على الخبر من ناحية أخرى.

٣ – دلالة الفعل الماضي والمضارع، فالماضي (آمنوا) يدل على الثبات والرسوخ، والفعل المضارع (تطمئن) – وقد تكرر مرتين – دلالته التجدد والاستمرار، وفي ذلك إشارة إلى أن رسوخ الإيمان وثباتَه هو سبيل الاطمئنان القلبي المتجدد المستمر الذي لا يخبو أبدا.

قال جمال الدين القاسمي: (والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده)[١].

وقال ابن عاشور: (واختير المضارع في «تطمئن» مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره وأنه لا يتخلله شك ولا تردد) [٢].

٤ – دلالة حرف (ألا) التنبيه ولفت الانتباه اهتماما بمضمون ما بعده، وإغراءً بما فيه [٣]، كما فيه معنى التأكيد على أن ذكر الله سبيل طمأنينة القلب، فهو حقيقٌ بذلك، ومن أصدق من الله حديثا؟! وهل بعد تأكيد الحق سبحانه حاجة إلى التقرير وغرض إلى التأكيد؟!

قال ابن القيم: (ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢٨٢، وانظر: روح المعاني للألوسي٧/ ١٤٣.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣/ ١٣٨.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣/ ١٣٨.

والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به) [١]

٥ – أسلوب التقديم لقوله: (بذكر الله) والتأخير لقوله: (تطمئن القلوب) وفيه إشارة دلالية للحصر والقصر الغالب أي بذكر الله لا بذكر غيره تطمئن القلوب (والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة لكن ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر) [٢] .

ومما يؤكد مدلول الآية هو حصول ضدها وهو القلق والضيق والهم بالبعد عن ذكر الله، كما قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه:١٢٤) وقال سبحانه:﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، وجاءت السنة الشريفة المنيفة لتؤكد هذه الحقيقة القرآنية، والوصفة الربانية، والترياق المجرب الناجع، والدواء النافع من كون طمأنينة وأنس القلوب في ذكر علام الغيوب، فقال النبي ﷺ: « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجا، ومن كل ضيقٍ مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب» [٣]

٢ – **قال الملك الحق المبين:**﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢)، لا غنى للخلق عنهما (الشفاء والرحمة) وهذه الآية أثبتت خصيصة عظيمة من خصائص القرآن، وهي مزية الاستشفاء بالقرآن، فمن قرأه بنية الاستشفاء شفاه الله [٤]، وخاصة شفاء الصدور من العلل النفسية كالقلق والغم والاكتئاب وضيق الصدر، ومن قرأه بنية الاسترحام رحمه الله، وحرف (من) هنا ليس للتبعيض فيكون بعضه دون بعض شفاءً، بل هي لبيان الجنس فجميع القرآن شفاء

(١) تفسير ابن قيم الجوزية ١/ ٣٣٧.
(٢) فتح القدير للشوكاني٣/ ٩٧، وانظر: روح المعاني للألوسي ٧/ ١٤٣.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٣٤)، وأبو داود في سننه (١٥١٨)، وابن ماجه في سننه (٣٨١٩)، والحاكم في المستدرك (٧٦٧٧) .
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٣١٥، وذكر الحديث: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله». أورده المتقي الهندي في كنز العمال ١٠/ ٩ (٢٨١٠٥) وعزاه إلى الدارقطني في الأفراد.

ورحمة [1]؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ **(فصلت: ٤٤)**، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧).

قال قتادة: (لم يجالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضى الله الذي قضى ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾) [2]

وقال ابن القيم في زاد المعاد كلاما نفيسا في هذا الشأن: (فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كلُّ أحدٍ يؤهَّل ولا يوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدا، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه [3]، والحميَّة منه لمن رزقه الله فهما في كتابه، وقد تقدم في أول الكلام على الطب [4] بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي حفظ الصحة والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي٣/ ٤٩، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي١٠/ ٣١٥ معالم التنزيل للبغوي٣/ ١٥٨ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي ٢١/ ٣٨٩.

(٢) معالم التنزيل للبغوي٣/ ١٥٨.

(٣) يريد ابن القيم بالمعالجة البدنية بالقرآن أي الأخذ بأصول التطبب والحمية الواردة في القرآن، وعلى رأسها الاعتدال في الطعام والشراب استرشادا بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وكما قيل: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء؛ ولذلك قال: (إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه).
وكذلك وجه التطبب به بدنياً هو بركته عند الرقية والتعوذ به كما قال الفخر الرازي: (وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية؛ فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض، ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى، ويتأكد ما ذكرنا بما روي أن النبي ﷺ قال:«من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى» تفسير الرازي ٢١/ ٣٩٠.

(٤) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٤/ ٥، فصل (الطب النبوي)، وذكر أن قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة.

الأنواع، وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت:٥١)، فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله) [١].

وهذا لا يعني الاستغناء عن التداوي والأخذ بأسباب الشفاء المادية، فإن الله قد سنَّ في هذا الكون سننا لا تتبدل، وجب علينا أن نسلك مسالكها كي نحقق نتائجها، وقد قال النبي ﷺ: «تداوَوْا عبادَ الله، فإن الله سبحانه لم يضع داءً إلا وضع معه شفاءً، إلا الهَرَم» [٢]، لكن المؤمن قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك كلِّه يعلم أن تحقيقَ الشفاء بالأسباب بإرادة الله وقدرته وإحاطته وعلمه، وهذا هو إيمان الأنبياء وأتباع الأنبياء، قال تعالى حكاية عن قول إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:٨٠) ويعلم أن تدابير أمور الكون بيد الله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف:٤٥)، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ (النساء: ١٢٦)، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام:٥٩) [٣].

٣ – قال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧).

وهذه الآية الكريمة كسابقتها في اشتمالها على مزية الاستشفاء بالقرآن الكريم، وزادت عليها بفائدتين جليلتين:

أ – تقرير خصوصية الاستشفاء بالقرآن في أمراض وأعراض (الصدور) وهو المراد في هذا السياق، فإن القلق والحزن والخوف واليأس والشؤم إنما تنشأ في الصدور والبواطن.

ب – تعميم الاستشفاء بالقرآن للناس جميعا، فمطلع الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وليس

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٤/ ٣٢٢ – ٣٢٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٤٥٥)، وأبو داود في سننه (٣٨٥٥)، والترمذي في سننه (٢٠٣٨)، وابن ماجه في سننه (٣٤٣٦)، والحاكم في المستدرك (٧٦٧٧).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي ٢١/ ٣٨٩، محاسن التأويل للقاسمي٦/ ٤٩٧، روح المعاني للألوسي ٨/ ٣٩١، فتح القدير للشوكاني٣/ ٣٠٠.

غريبا في كون القرآن شفاءً للناس جميعا، فشفاء الكافر بالقرآن بنزع الكفر من قلبه، ونشر النور فيه، وشفاء المنافق بإطفاء جذوة النفاق في قلبه، وإيقاد نور الإيمان فيه، وشفاء المؤمن بالقرآن بزيادة إيمانه من جهة، وتخليصه من أمراض القلوب وأعراض النفوس من جهة أخرى، وهؤلاء هم الناس جميعا.

٤ – **قال سبحانه وتعالى:** ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال ٢) قررت الآية التي ابتدأت بأداة الحصر والقصر (إنما) أن من أخص خصال الإيمان التأثر بذكر الله، وإن وَجَلَ القلب وخشوعَه وخضوعَه عند سماع الذكر هو علامة الإيمان وبشاشته ونضارته، ومن وجد الله في قلبه فماذا فقد؟ ومن فقده فماذا وجد؟! ثم تؤكد الآية في منتصفها أن الاستزادة من القرآن استزادة من الإيمان والأمان ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ فهو الذي (لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه) [(١)]، ثم ختمت الآية الكريمة بعبادة التوكل؛ لأن زيادة الإيمان سبيل قويم لتحقيق التوكل، ومن توكل على الله كفاه ووقاه وحماه مما يحاذره ويخشاه.

وقد يسأل سائل: كيف نجمع بين الطمأنينة بذكر الله الواردة في الآية السابقة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ وبين الوَجَل والخشية عند ذكر الله الوارد في هذه الآية؟! والجواب من وجهين:

١ – لا تعارض بين الوجل والخشية من الله وبين الطمأنينة والسكون والاستئناس به؛ لأن الفرار من الله لا يكون إلا إليه، فكل أحد إذا خفته فررت منه إلا الله إن خفته فررت إليه؛ لذا جاء في الآية: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الذاريات: ٥٠)، ومن فرَّ إلى الله سكن إليه واطمأن به.

٢ – الوَجَل والخشية يكون عند ذكر العقوبة والغضب وشدة الحساب، والطمأنينة تكون عند ذكر الرحمة والفضل والمغفرة، ولا شك أنَّ رحمتَه سبحانه تسبق غضبه؛ لأن رحمته وسعت كل شيء، ورحمته التي تسمى بها باسمين جليلين قدَّمهما على صفة عذابه حين

(١) جزء من حديث نبوي في فضل القرآن من رواية علي بن أبي طالب ﷺ أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٠٦)، والدارمي في سننه (٣٣٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٨٨).

قال:﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (الحجر ٤٩ – ٥٠)، وجعلهما فاتحة القرآن الكريم، وفاتحةَ فاتحةِ الكتاب وأمِّ القرآن في كل ركعة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .

قال البغوي في تفسيره: (فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ (الأنفال: ٢)، فكيف تكون الطمأنينة والوجل في حالة واحدة؟ قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وثوابه وكرمه) [1] وقال صِدّيق حسن خان: (والوجل ضد الاطمئنان، فالمعنى أنهم إذا ذكروا العقوبات وجلوا وإذا ذكروا المثوبات سكنوا) [2] .

وقد جمع الله عز وجل بين الخشية من ذكره والطمأنينة بذكره في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر:٢٣)، قال الزمخشري: (وتطمئن قلوبهم بذكر الله بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، كقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾) [3] .

المبحث الثاني

هدايات القرآن في النهي عن الحزن والضيق واليأس وغيرها من المشاعر السلبية ومواقد الأمراض النفسية

١ – موارد الحزن في القرآن الكريم جاءت على سبيل النهي عنه، فالنهي عنه أدب الله مع الأنبياء، حيث قال لموسى عليه السلام: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٦)، وأدب الله مع سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ فنهاه عنه في أكثر من موضع﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر:٨٨)، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل:١٢٧)،﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ

(١) معالم التنزيل للبغوي٣/ ٢٠.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/ ٥٤ .
(٣) الكشاف للزمخشري٢/ ٥٢٨.

جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يونس:٦٥)،﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (يس:٦٥)،﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥ ﴾ (لقمان:٢٣)، وهو هدي النبي ﷺ مع صاحبه الصِّدّيق في أحلك المواقف وأشد الأحوال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠)، وهو وصية الله تعالى للمؤمنين عامة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٩)، وأخبر سبحانه أن حزن المؤمنين هو مقصود الشيطان الرجيم، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (المجادلة:٧)، وليس ذاك إلا لكون الحزن سببَ الكسل والركون والتأخر، فالحزين الذي غلب عليه حزنه يكون أسيرا لأحزانه المانعة له من مواصلة حياته، ونفع نفسه وأهله ووطنه وأمته، بل إن الحزن الآسر سببا لتراكم الأمراض النفسية المهلكة، فتكرار القرآن لهذا النهي هو تأكيد على أن أسير الأحزان والضيق والهم على خطر عظيم.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: (نهي للمسلمين عن أسباب الفشل، والوهن: الضعف، وأصله ضعف الذات: كالجسم في قوله تعالى:﴿إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ (مريم:٤)، والحبل في قول زهير: فأصبح الحبل منها واهنا خلقا، وهو هنا مجاز في خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأسا، والشجاعة جبنا، واليقين شكا؛ ولذلك نهوا عنه، وأما الحزن فهو شدة الأسف البالغة حد الكآبة والانكسار، والوهن والحزن حالتان للنفس تنشآن عن اعتقاد الخيبة والرزء فيترتب عليهما الاستسلام وترك المقاومة) [(١)] .

ومن هنا نعلم أن من التعويذات النبوية المشهورة المذكورة التي كان يكثر منها ﷺ هي الاستعاذة من الهمِّ والحَزَن، قال أنس: فكنت أسمعه ﷺ يكثر أن يقول:«اللهم إني أعوذ بك من الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَل، والجُبْنِ والبُخْلِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرجال»[(٢)] .

ومما يدل على أن القرآن دافعُ الهموم ورافعُ الأحزان والغموم دعاء النبي ﷺ بذلك، فيما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:«ما أصاب أحداً قطُّ هَمٌّ ولا حُزْن، فقال: اللهم إني

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٤ / ٩٨.
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٣ – ٥٤٢٥ – ٦٣٦٣)، ومسلم (٢٧٠٦) .

عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا»، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلَّمُها؟ فقال:«بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها» (١) .

قال ابن القيم: (اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين؛ ولهذا لم يأْمر الله به في موضع قط ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاءً ولا ثواباً، بل نهى عنه في غير موضع ..فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها؛ ولهذا يقول أهل الجنة:﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (فاطر:٣٤)، فحَمْدُهُ على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها) (٢) .

٢ – قال الحق سبحانه حكاية عن نبي الله يعقوب عليه السلام:﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)، يعلمنا نبي الله يعقوب – عليه السلام – والله هو الذي علَّمه وألهمه وأوحى إليه وفهَّمه – أنَّ اليأسَ والإيمانَ لا يجتمعان، وأنَّ القنوطَ في الشدائد سبيلُ المهملين فقراء الإيمان واليقين.

ورَوح الله هو فرجه ورحمته، قال ابن زيد: (ولا تيأسوا من روح الله: من فرج الله، يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه، وقال: يريد: أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة) (٣) .

واستدل الإمام القرطبي بهذه الآية على أن اليأس والقنوط من الكبائر (٤) .

ومن الملامح البلاغية في هذه الآية العظيمة: أسلوب الافتنان في التوجيه، ففيها الأمر والنهي والخبر القاطع بالنفي، فأمرهم ببذل الأسباب أيًّا كان قدر السبب، ولو كان (تحسسا) وتلمسا للأخبار، ثم نهاهم عن قاطع طريق الأمل (اليأس)، وربما ييأس الإنسان من فرج

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١٢)، وابن حبان في صحيحه (٩٧٢) .
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية ص٢٧٩.
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٣٣، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٠ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٥٢.

أخيه الإنسان لكن اليأس من فرج الله جهل ونكران لرحمة الرحمن وفضل المنان، ثم ختمت الآية بالنفي القاطع لاجتماع اليأس مع الإيمان في قلب الإنسان، وكفى بالنفي مع الاستثناء الحاصر القاصر دليلا وبرهانا على أن اليأس لا يجد طريقا إلى القلب المؤمن الموقن المتوكل على خالق كلِّ شيء ومدبرِ كلِّ شيء، والذي وسعت رحمته كلَّ شيء سبحانه عز شأنُه وسلطانُه.

ولما كان اليأس كبير الأثر على النفس، وربما يؤدي إلى تلفها، عدَّه بعض السلف من سبل إلقاء النفس إلى التهلكة، فقد قال محمد بن سيرين وعَبيدة السلماني: (الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى) [1] .

المبحث الثالث

هدايات القرآن الكريم في غرس التفاؤل والاستبشار ونبذ التشاؤم وفقدان الأمل

١ – قال الملك الحق المبين وهو أصدق القائلين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هاتان الآيتان من سورة (الشرح) – ومن أسمائها (الانشراح) [2] – فما أعظمه من اسم يبعث على السكينة! وما أعظمها وأجلَّها من آيات تظلِّلُنا بالطمأنينة! وتؤنس قلوب الخائفين من عسر الزمان وتفشي الأهوال وضيق الأحوال، ومن الملامح البلاغية البديعة المهمَّة في هذا السياق في هاتين الآيتين الكريمتين:

أ – المناسبة البليغة بين اسم السورة (الشرح) وبين مضمون الآيتين، فالاسم طابق المضمون، والآيتان لمن أيقن وتفكَّر وتأمَّل وتدبَّر بلسم شفاء، وجرعة دواء؛ لتحقيق انشراح الصدور، وتجديد الأمل في النفوس، والاستبشار بالفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر.

ب – أسلوب التأكيد بحرف التوكيد (إن) مع تكرره، فالخبر الإلهي نافذ لا محالة، فكيف بالخبر المؤكد مرتين؟!

ج – أسلوب التكرار: ومن أغراضه التأكيد والتقرير؛ لتقرير معناها في النفوس وتمكينها من القلوب، وقد قال البلاغيون: إن الأمر إذا تكرَّرَ فقد تقرَّرَ، ويظهر في تكرار الآية كلِّها

(١) معالم التنزيل للبغوي ١/ ٢٤٠، زاد المسير لابن الجوزي ١ / ١٥٨ .
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٣٣.

بحرف التوكيد واسمه وخبره، ولا يفوتني هنا التنبيه إلى الفرق بين تكرر (العسر) المعرَّف، وتكرر (يسرا) المنكّر، فإن فيه نكتة بلاغية مهمة في هذا السياق، وهي أنَّ تكرر المعرفة يفيد أن الثاني هو الأول، بينما تكرر النكرة يفيد أن الثاني غير الأول [1]، وعلى ذلك فتكرار الآية أفاد تعدُّدَ اليُسْرِ لتكرُّرِه فهو نكرة، وتفرُّدَ العُسْرِ لتكرُّرِه فهو معرفة [2]، ومن هنا نفهم قول النبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، حين خرج مسروراً فرحا وهو يضحك ويقول: «لن يَغلِبَ عُسْرٌ يسرَيْن، لن يَغلِبَ عُسْرٌ يسرَيْن»، فقرأ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾» الشرح (٥ :٦) » [3].

وعن أنس بن مالك أنه قال:«كان النبي ﷺ جالسا وحياله جُحْرٌ، فقال:«لو جاء العُسْرُ فدخل هذا الجُحْرَ لجاء اليُسْرُ حتى يدخل عليه فيخرِجَهُ»، فأنزل الله عز وجل:﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح (٥ :٦) » [4].

وحكى ابن الجوزي في تفسيره عن العتَبي أنه قال: (كنت ذات ليلة في البادية بحالة من الغَمِّ، فأُلْقِيَ في رُوعي بيتٌ من الشعر، فقلت: أرى الموتَ لمن أصبح ... مَغْمُوماً لَهُ أَرْوَحْ

فلما جنَّ الليل سمعتُ هاتفاً يهتف:

ألا يا أيّها المرء الـذي الـهـمُّ بِـه بـــرَّحْ
وقد أَنْشَـدَ بَيْتـاً لَمْ يـزل في فكره يسبحْ

(١) وهو قول اللغويين كالفراء والزجاج وغيرهما، انظر: زاد المسير لابن الجوزي٤/ ٤٦١ مفاتيح الغيب للفخر الرازي٣٢/ ٢٠٩.
فقولك: (إذا كسبت الدرهم فأنفق الدرهم) (جاء الرجل ثم جلس الرجل) تفيد أن الثاني هو الأول، أما قولك: (إذا كسبت درهما فأنفق درهما) (جاء رجل ثم جلس رجل) تفيد أن الثاني غير الأول.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي٤/ ٩٤، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢/ ٣٥٢، تفسير ابن كثير ٨/ ٤٣٢، محاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٤٩٧، المحرر الوجيز لابن عطية٥/ ٤٩٧، البحر المحيط لأبي حيان١٠/ ٥٠١.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٦٤٣)، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٩٥، والحاكم في المستدرك (٣٩٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٤١)، بإسناد مرسل عن الحسن البصري، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٤٨٦)، والحاكم في المستدرك (٣٩٤٩)، وصححه، والبيهقي في الشعب (٩٥٣٨)، موقوفا على عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٤٠)، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٩٥، موقوفا على ابن مسعود.

إذا اشتَدَّ بك العُسرُ ففَكِّر في «أَلَمْ نَشْرَحْ»
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ إذا أَبْصرَتَهُ فَافْرَحْ
فحفظت الأبيات وفرّج الله غمّي) [1] .

٤ – أسلوب التقديم والتأخير، وذلك حين قدم خبر إن (مع العسر) وأخّر اسم إن (يسرا) وغرض التقديم التنبيه والاهتمام بأن العسر مهما كان وقعه وأثره فإنه يعقبه اليسر بإذن الله.

٥ – أسلوب المجاز التشبيهي (الاستعارة) في معيَّة العسر واليسر مرتين ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فالعسر ضد اليسر ولا يجتمعان معا، فالمعية هنا على غير حقيقتها، فهي مستعارة للبَعْدية أي للتعاقب بينهما [2]، ووجه الشبه هو القرب بين المعية والتعاقب، وغرض المجاز هو الإشارة إلى شدة التعاقب وسرعته فكأنهما معا، وبذلك يرتفع التعارض بين هذه الآية في لفظ المعية وبين الآية الأخرى ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (سورة الطلاق:٧)، في لفظ التعاقب بالبعدية، فتأمل جمال التصوير القرآني وروعة البيان الرباني.

٢ – قال الله جلَّ مجدُهُ وتعالى في علاه: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف:٦٤).

هذه الآية هي حكاية عن قول نبي الله يعقوب –عليه السلام –، وهذا دأب الأنبياء وأدبهم في صدق التوكل على الله، واليقين بأن الله تعالى هو خير الحافظين، وأرحم الراحمين، وركن المتوكلين، فمن أيقن بذلك هل يجد القلقُ والشؤمُ وفقدانُ الأمل إلى قلبه سبيلا؟ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ومعنى الآية: أنَّ حفظَ الله لعبده خيرٌ من حفظ غيره له، وأنَّ من وكَّل أمره لمولاه ورضي بالله حسيبا وكفيلا وحافظا ومعينا فهو في معية الله وحفظه وكلاءته وعنايته.

ومن الملامح التفسيرية البلاغية في القراءات المتواترة الواردة في الآية هي أنَّ لفظ (حافظا) هو رواية حفص عن عاصم، وقراءة حمزة والكسائي وخلف البزار في اختياره،

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي٤/ ٤٦١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور٣٠/ ٤١٣.

وفي قراءة متواترة لبقية القراء العشرة (فالله خيرٌ **حِفْظاً** وهو أرحم الراحمين) [1]، والوصف بالمصدر أبلغ من الوصف باسم الفاعل، فقولك: فلان عدلٌ أبلغ من قولك: فلان عادل؛ لأن وصفك له بالعدل فيه إشارة إلى كونه مصدرَ العدل والإنصاف؛ ولذا كان من أسماء الله الحسنى (العدل)؛ فهو أبلغ من (العادل)، وجاء في الأثر عن كعب الأحبار: (لما قال يعقوب – عليه السلام –: «فالله خير حافظا» قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لأَرُدَّنَ عليك ابنيك كليهما بعد ما توكلتَ عليَّ ») [2]

الخاتمة

الحمد لله في مفتتح كلِّ أمرٍ ومنتهاه، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: ف

في ختام هذا البحث أستخلص منه جملة من النتائج والتوصيات، وهي على النحو الآتي:

أولاً: النتائج:

١. ثبوت هيمنة القرآن وحضوره الفاعل والمؤثر بهداياته البالغة وحججه الدامغة في جميع مناحي الحياة.

٢. ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم في أوقات النوازل والأزمات للاستهداء بهداياته السديدة، والاسترشاد بمقاصده وتوجيهاته المباركة.

٣. الأزمات الإنسانية تصاحبها جملة من الأعراض النفسية، كالخوف والقلق والحزن والشك والاكتئاب والتشاؤم واليأس، والقرآن الكريم يزخر بالمعالجات النفسية لهذه الأعراض، ببث روح السكينة والطمأنينة، والنهي عن الحزن والضيق واليأس والمشاعر السلبية التي هي مواقد الأمراض النفسية، ويغرس التفاؤل والاستبشار، وينبذ التشاؤم وفقدان الأمل، وكلُّ ذلك في آيات جليلة مركَّزة في بلاغها ورسالتها، وثرية بالصور البلاغية البيانية المؤكِّدة للمضمون، والمؤثرة في نفس المتلقي.

ثانياً: التوصيات:

١. الكتابة في: الهدايات النبوية في أزمة الوباء العالمي المعاصر في معالجة مظاهرها المختلفة

(١) التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني، ص١٢٩، النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٩٥، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للبنا الدمياطي ١/ ٣٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٢٢٤، روح المعاني للألوسي ٧/ ١٢.

(النفسية والاجتماعية والإيمانية والفقهية والدعوية).

٢. إتمام هدايات القرآن الكريم في معالجة المظاهر الأخرى المختلفة للنوازل والشدائد والأزمات، وأوصي بما يلي:

أ – هدايات القرآن في التسلح بالعلم ومحاربة الجهل لمواجهة النوازل والكوارث الطبيعية.

ب – هدايات القرآن في الأمن المجتمعي أثناء النوازل والشدائد.

ج – هدايات القرآن في تقويم العلاقات الاجتماعية أثناء النوازل والشدائد.

د – هدايات القرآن في الأعمال الخيرية والإنسانية أثناء النوازل والشدائد.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم.

٢. إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا الدمياطي (ت١١١٧هـ)، تحقيق: أنس مهرة. ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ.

٣. الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤ م.

٤. البرهان في علوم القرآن: محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤) ط ١، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ.

٥. تفسير ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) المحقق: أسعد الطيب الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط. ٣ عام ١٤١٩ هـ.

٦. تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير): أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ط. ١ عام ١٤٢٢هـ.

٧. تفسير ابن القيم: (التفسير القيم): محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث بإشراف إبراهيم رمضان، الناشر: مكتبة هلال، بيروت ط. ١، عام ١٤١٠هـ.

٨. تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير): محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر، عام ١٩٨٤م.

٩. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): عبد الحق بن غالب بن عطية

الأندلسي (ت:٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ.

١٠. تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ.

١١. تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير): أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت ط. عام ١٤٢٠هـ.

١٢. تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني): محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١ عام ١٤١٥هـ.

١٣. تفسير البغوي (معالم التنزيل): محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.١ عام ١٤٢٠هـ.

١٤. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): محمد بن عمر التيمي فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ن ط٣. عام ١٤٢٠هـ.

١٥. تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل): محمود بن عمرو الزمخشري، ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ.

١٦. تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير): محمد ابن علي الشوكاني، ط ١، دمشق: دار ابن كثير، ١٤١٤ هـ.

١٧. تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله التركي الناشر: دار هجر، ط. ١، عام ١٤٢٢ هـ .

١٨. تفسير القاسمي (محاسن التأويل): محمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١ عام ١٤١٨هـ.

١٩. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط.٢ عام ١٣٨٤هـ.

٢٠. تفسير عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) تحقيق: د. محمود محمد

عبده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١ عام ١٤١٩هـ.
٢١. التيسير في القراءات السبع: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ) تحقيق: أوتو تريزل، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ط.٢ عام ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م.
٢٢. الجامع الصحيح: محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) . تحقيق وتعليق: أحمد شاكر، وآخرين. ط٢، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ.
٢٣. زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١ هـ)، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار، الكويت، الطبعة ٢٧ عام ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٢٤. سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (ت: ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
٢٥. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السَّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية.
٢٦. سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المغني، السعودية، ط.١ عام ١٤١٢هـ.
٢٧. شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبد العلي حامد. ط١، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٢٨. صحيح ابن حبان: محمد بن حبان البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.
٢٩. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد زهير بن الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، شرح وتعليق: د. مصطفى ديب البغا.
٣٠. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣١. طريق الهجرتين وباب السعادتين: محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) الناشر: دار السلفية، القاهرة ن ط.٢ عام ١٣٩٤هـ.
٣٢. فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان القِنَّوْجي (ت١٣٠٧هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، عام ١٤١٢هـ

٣٣. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين المعروف بالمتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.٥ عام ١٤٠١هـ.

٣٤. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله النيسابوري الحاكم (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٣٥. مسند أحمد بن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٣٦. المصنف: أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٣٧. النشر في القراءات العشر: شمس الدين محمد بن حمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق: علي الضباع، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.